أهمية اللغات الأوربية القديمة والحديثة
للمتخصصين فى الدراسات الشرقية

محمد خليفه

لاشك فى أن مناهج البحث والدراسة فى الكليات النظرية عامة وفى كلية الآداب خاصة تعتمد اعتماداً رئيسياً على المعرفة الجيدة بعدد من اللغات تتنوع حسب نوعية التخصص فى الأقسام العلمية بكلية الآداب. ففى أقسام اللغات يكون الاعتماد الأساسى فى البحث والتدريس على لغات التخصص،ثم تأتى بعدها اللغات الأخرى التى هى وسيلة أساسية للحصول على المادة العلمية المرتبطة بلغات التخصص وآدابها وحضارتها. وهنا تحتل اللغات الأوربية مركز الصدارة بالنسبة للغات المطلوبة لخدمة التخصص على مستوى البحث العلمى وعلى مستوى التدريس. فالكثير من لغات التخصص كالعبرية والفارسية والتركية والحبشية والأوردية والأسبانية والايطالية واليابانية والالمانية وغيرها. كلها قد لا تتوافر مادتها العلمية الأساسية فى مصادر عربية كما أن القدرة على اكتساب هذه المادة من مصادرها الأساسية بهذه اللغات قد تكون صعبة فى الفترة الأولى من الدراسة،ولذلك فاللجوء الى اللغات الأوربية أصبح ضرورة للتعرف على هذه اللغات التخصصية من خلال مصادر أوربية حديثة خاصة فى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والأسبانية.

ومن تجربتنا فى قسم اللغات الشرقية تكاد ترتبط بعض اللغات السامية والشرقية بلغة أوربية معينة كمصدر أساسى للمراجع الشارحة لهذه اللغة الشرقية وقواعدها وآدابها. هذا يتضح خاصة فى ارتباط اللغة الحبشية مثلا باللغة الايطالية نظرا لأن العديد من المصادر فى تاريخ الحبشة ولغتها وآدابها كتبت بالايطالية بسبب الارتباط الاستعمارى

للحبشة بايطاليا قبل استقلال الحبشة. وكذلك المعرفة بالعبرية وآدابها ارتبطت بمعرفة الانجليزية والألمانية كأهم لغتين كتبت بهما أبحاث فى اللغة العبرية وآدابها وأهمية الألمانية عظيمة بالنسبة للغات السامية والشرقية ولا غنى عنها للمتخصص.

وفى غير أقسام اللغات، نجد للغات الأوربية الحديثة أهمية خاصة كمصدر أساسى للماده العلمية فى الدراسات النظرية اجتماعية كانت أو انسانية،فأقسام الفلسفة والاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وغيرها لاشك أنها تعتمد اعتماداً أساسياً على مصادر أوربية فى الحصول على مادتها الأساسية. ولا ننسى أن نشير إلى أن هذه الأقسام قد تجد بعض مادتها العلمية فى مصادر عربية نظراً لأصالة هذه التخصصات وقدمها عربياً ووجود تراث عربى فيها يساعد على فهمها وشرحها بعكس أقسام اللغات التى لم تتوافر لها بعد مكتبة عربية كافية،إما بسبب ندرة هذه اللغات أو حداثتها فى الجامعات المصرية باستثناء بعض اللغات الأوربية مثل الانجليزية والفرنسية،التى يمكن أن نقول أن المكتبة العربية تتوافر بها بعض المادة عن هاتين اللغتين وآدابهما وان لم تتناسب مع ضخامة الأدب الانجليزى والفرنسى وأهمية الانجليزية والفرنسية كلغتين عالميتين. ووفرة هذه المادة ربما يعود الى انتشار الثقافة الانجليزية والفرنسية فى العالم العربى والذى كان الى عهد قريب مستعمرا من قبل انجلترا فى بعض البلدان العربية وفرنسا فى بعض البلدان العربية الأخرى.

وضع اللغتين اليونانية واللاتينية

واذا كان هذا هو وضع اللغات الأوربية الحديثة فإن بعض اللغات الأوربية القديمة اكتسبت أهمية خاصة فى النظام التعليمى فى كليات الآداب وخاصة فى آداب القاهرة التى أولت هاتين اللغتين أهمية خاصة على مستوى الدراسة التخصصية وأيضا على مستوى الدراسة المساعدة فى أقسام اللغات بكلية الآداب وفى بعض الأقسام النظرية كالفلسفة.

وبالنسبة لأهمية هاتين اللغتين نشير أولا إلى الأهمية التراثية التاريخية لهاتين اللغتين. فالبحث فى موضوعات التراث القديم لا تستغنى مطلقا عن المعرفة الجيدة باللغتين اليونانية واللاتينية. ففضلا عن أهميتهما المطلقة فى معرفة التراث اليونانى القديم والتراث اللاتينى تعتبر اليونانية واللاتينية المصدرين اللغوين الأساسيين للتعرف على تراث العالم القديم. وهنا تبرز أهمية هاتين اللغتين فى معرفتنا بالتراث الشرقى القديم والذى يمكن أن نقسمه إلى قسمين من حيث علاقته المباشرة أو غير المباشرة بالعالم اليونانى والعالم الرومانى القديم. القسم الأول من التراث الشرقى القديم له صلة مباشرة بالتراث اليونانى والتراث اللاتينى. وهذا يجعل من المعرفة باليونانية واللاتينية أمراً ضرورياً بالنسبة للمتخصص والباحث المدقق. هذا القسم يمكن أن نسميه تراث حوض البحر الأبيض المتوسط – وهو الحوض الذى نشأت فيه اللغة اليونانية وحضارتها كما نشأت فيه اللغة اللاتينية وحضارتها – وهو تراث مشترك ساهمت فيه بعض الشعوب الأساسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط نخص منها حسب موقعها من هذا البحر بلاد اليونان والرومان فى الشمال، وبلاد الشام ومصر وبقية بلدان الشمال الأفريقى المطلة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط. هذه الشعوب ساهمت مساهمة فعالة فى خلق ثقافة مشتركة طبعها البحر المتوسط بطابعه. وإن كنا لا ننفى تميز كل بلد أو اقليم من هذه الأقاليم المطلة على البحر المتوسط بخصائص وتراث داخلى يخصه ويميزه عن بقية شعوب البحر المتوسط. ولكن انجذاب هذه الشعوب مجتمعة الى هذا البحر العظيم بتنوع ثقافته أدى إلى ظهور خصائص ثقافية مشتركة ساعد على إبرازها الجوار المشترك بفضل هذا البحر، والتجارة بين شعوبه بل والحروب التى قامت بين بعض هذه الشعوب. كل هذه العوامل ساعدت على اختلاط ثقافة هذه الشعوب واندماجها بعد أن تم انتقالها بواسطة الجوار والحوار المشترك والتجارة والحروب وغيرها من وسائل انتقال عناصر الثقافة من شعب إلى آخر.

والقسم الثانى من تراث الشرق القديم يخص الجزء الداخلى من شعوب الشرق الأدنى القديم وهى الشعوب الداخلية والتى على الرغم من بعدها النسبى من البحر الأبيض المتوسط إلا أنها ترتبط بهذا البحر ارتباطا تاريخيا رغم أنها لا تقع عليه مباشرة. فبعض هذه الشعوب الداخلية احتكت احتكاكا سياسيا وعسكريا مباشرا ببلاد اليونان والرومان،لعل من أهمها عبر التاريخ القديم الصراع السياسى والعسكرى بين اليونان والفرس وهو احتكاك قديم عظيم كان له تأثيره المباشر على آداب هذين الشعبين وعلى ثقافة هذين الشعبين. وكذلك الصراع السياسى والعسكرى بين اليونان وبلاد النهرين قبل وقوع بلاد النهرين تحت الحكم الفارسى وبعد وقوعها. ولا نتجاهل الدور الكبير لحملات الاسكندر الأكبر التى نتج عنها سيادة اليونان على الشرق القديم ومحاولتها نشر الثقافة اليونانية فى هذا الشرق كهدف أسمى للفتح الاسكندرى. وبصرف النظر عن النجاح أو الفشل فى تحقيق هذا الهدف الثقافى إلا أن الحقيقة التاريخية التى لا يمكن انكارها هى وقوع اليونان نفسها تحت التأثير الشرقى قبل الفتح الاسكندرى للشرق وبعده ودخول عناصر قوية من التراث الشرقى القديم فى التراث اليونانى وساعدت على تشكيل الثقافة اليونانية وتكوينها. ويجب أن نشير أيضا إلى الغزو الرومانى لبلاد الشرق الأدنى وما نتج عنه من تأثيرات ثقافية متبادلة.

هذا هو الوضع التاريخى لعلاقة اليونان والرومان بالشرق الأدنى القديم،وهو وضع يلزم الدارسين المتخصصين بضرورة العناية بهذه العلاقة فى كل تجلياتها فمثلاً لا يمكن تصور التاريخ اليونانى أو الرومانى سواء السياسى أو الثقافى بمعزل عن تاريخ الشرق الأدنى والعكس بالعكس صحيح أيضا،هذا الوضع أدى الى أن تكون لليونانية واللاتينية علاقة متينة بتراث الشرق القديم الأمر الذى أدى الى وفرة المصادر اليونانية والرومانية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته وبالتالى بروز أهمية معرفة اليونانية واللاتينية بالنسبة للمتخصص فى دراسات الشرق الأدنى القديم عامة.

وعلى الرغم من الأهمية العامة للغتين اليونانية واللاتينية فى مجال الدراسات الشرقية فهناك عدة مجالات خاصة تبرز فيها هذه العلاقة بروزا واضحا تدفعنا الى القول بدون مغالاة إلى أن بعض اللغات السامية لها علاقة خاصة بإحدى هاتين اللغتين أو بكليهما معا. وما نقصده بهذه العلاقة الخاصة لا يرتبط بالطبيعة الخاصة لهذه اللغات سامية كانت أو أوربية قديمة، ولا يرتبط بالاسرة اللغوية وخصائصها، ولكنه ارتباط ثقافى بحيث لا يمكننا تصور امكانية التعمق فى هذه اللغة السامية أو تلك بدون معرفة متعمقة باليونانية أو اللاتينية أو بالإثنين معا. فاللغة الحبشية القديمة ظلت الى عهد قريب لا يتوافر لها معجم إلا باللغة اللاتينية وهو معجم ولمان الذى يعتمد عليه المتخصصون اعتماداً كلياً وأصبح معروفا أن من يتخصص فى الحبشية القديمة عليه أن يتعلم اللاتينية حتى يتمكن من استخدام المعجم الحبشى اللاتينى. كما أن دراسة اللغة السريانية وآدابها والفكر المكتوب بها أو المنقول اليها يتطلب معرفة جيدة باللغة اليونانية وباللغة اللاتينية. ومعروف أن السريانية أصبحت لغة وسيطة لنقل ثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم الى اللغة العربية حيث تمت ترجمة العديد من الأعمال اليونانية فى العلوم المختلفة الى السريانية ومنها تم ترجمة العديد من هذه الأعمال الى العربية. وفى الأدب العبرى هناك فترة وقوع اليهود فى فلسطين تحت الحكم اليونانى وتأثرهم بالثقافة اليونانيةومن أهم نتائج هذا التأثير الثقافى اليونانى ترجمة كتاب العهد القديم الى اليونانية فيما عرف بالترجمة السبعينية والتى أصبحت أساساً للعديد من ترجمات العهد القديم وأساساً للعديد من الدراسات النصية النقدية للعهد القديم. وبالتالى أصبحت معرفة اليونانية أساسية للمتخصص فى نقد العهد القديم. وبشكل عام نجد أن معظم الأعمال الاستشراقية الأولى قد كتبت باللاتينية ولم يترجم إلا القليل منها إلى اللغات الأوربية الحديثة وعلى المتخصص فى مجال الدراسات الشرقية أن يستخدم هذه الأعمال فى نسختها اللاتينية. كما نجد أن العديد من مصادر التاريخ والفكر اليهودى قد كتبت باليونانية واللاتينية منها أعمال على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ يوسيفوس والفيلسوف فيلون.